دكتور بهاء الأمير

فرعون بين التوراة والقرآن(•)

(•) تعقيب على مقالة نشرت بمجلة الأزهر عدد : ربيع الآخر ١٤٢٣هـ/يونيو ٢٠٠٢م ، تم تسليمه باليد لمدير تحرير المجلة في حينه ورفضت المجلة نشره.

الحمد لله أحاط بكل شئ علمه ، ونزل تبياناً لكل شيء وحيه ، والصلاة والسلام على النبي الأمي المصطفى ، الملقى من لدن ربه علماً فما ينطق عن الهوى.

وبعد ،

فقد نشرت مجلة الأزهر الغراء في عدد شهر ربيع الأول ١٤٢٣هـ / يونيو ٢٠٠٢م في باب : "من مختارات مجلة الأزهر" مقالاً لأحد كبار علماء الأزهر هو الأستاذ الكبير فكري يس تحت عنوان : " فرعون".

والمقال – كما أشارت المجلة في الهامش– كان قد نشر في عدد ربيع الآخر سنة ١٣٥٨هـ ، أي منذ ستين عاماً ونيف.

وقد حوى المقال المذكور ما يُلتمس فيه للأستاذ الكاتب الكبير العذر إذ خفي عليه ، بيد أنه لا يسعنا إلا استدراكه ، إذا في استدراكه جلاء حقيقة ، وبيان وجوه من إعجاز القرآن دفينة ، وكشف دلائل على صدقه فيه خبيئة.

أصل لفظ فرعون ومعناه :

في أصل لفظ فرعون ومعناه نقل الأستاذ الكاتب عن المسعودي المؤرخ (ت: ٣٤٥هـ) ، وعن الراغب الأصفهاني المفسر(ت: ٥٠٢هـ) ، وعن ابن سيده (ت:٤٥٨هـ) وابن منظور (ت:٧١١هـ) والفيروز أبادي (ت:٨١٧هـ) اللغويين تفسيرات عديدة ، منها أنه لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية وأنه اسم أعجمي ، أو أنه من الفرعنة ، أي: الكبر والتجبر، أو أنه اسم لكل من ملك القبط ومصر في الزمن القديم.

والمؤرخ والمفسر واللغويون الذين نقل عنهم الأستاذ الكاتب معذورون في حيرتهم في أصل لفظ فرعون ؛ إذ قد ولدوا وعاشوا وماتوا وحضارة المصريين القدماء في الأطمار مجهولة ولغتهم في تلافيف الزمان مخبوءة.

فلا عجب وقد اكتشفت اللغة المصرية القديمة وفكت معمياتها في القرن التاسع عشر الميلادي أن يضرب من يتحدث عن أصول ألفاظها في القرن الرابع أو السابع أو الثامن الهجري أخماساً في أسداس.

ونقول :

فرعون تركيب مصري قديم يتكون من مقطعين أو كلمتين : بر وعا .

أما : " بر" فإنها في المصرية القديمة بمعنى : بيت House أو قد تعني : خرج أو ذهب خارجاً To go out ، ويرمز لها فى الكتابة الهيروغليفية ، ومعناها الكتابة المقدسة أو الخط المقدس، بمسقط منزل على شكل مستطيل غير مكتمل من أسفل هكذا: ⊔

وينطق صوتها في اللغات الأوروبية هكذا: Per[1] ، وفي العربية : بر بباء شفوية ثقيلة.

وأما : "عا " فهي تعني : الكبير أو العظيم Great ، ويرمز لها في الكتابة الهيروغليفية بسهم مجوف مخنوق العنق هكذا: ، وصوتها فى اللغات الأوربية يكون هكذا: a a[2]، وفي العربية : عا.

ففي المصرية القديمة برعا per aa وكانت تكتب هكذا: تعني البيت الكبير أو البيت العظيم.

وقد تجاوز القرآن الكريم النطق الصوتي لهذا التركيب على أصله : برعا إلى تركيب صوتي آخر هو: فرعون قصداً ، فيما نرى – لنكارة صوت : " عا " في النطق ومجافاتها لذوق الأذن العربية مع مشابهتها لصوت البقر.

أما باء : بر فقد قلبها القرآن الكريم فاءًا ، إذ لا وجود لهذه الباء الشفوية الثقيلة في العربية وفي أغلب اللغات السامية ، ومن ثَم فهي تنقلب عند النطق في العربية وفي السامية إلى الفاء المتحدة معها مخرجاً القريبة منها صوتاً.

---

(1) E.A. Wallis Budge:Egyptian language,Easy lessons in Egyptian Hieroglyphics with list of signs,P76, Routledge & Kegan Paul Ltd.,Sixth edition,London, 1951.
(2) Budge, Ibid,. P86.

على من يطلق لفظ فرعون :

ذكر الأستاذ الكاتب في نُقوله أن فرعون :

"**هو اسم لكل من ملك القبط ومصر في الزمن القديم ، وقيل : هو لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس وقيصر لملك الروم ...الخ ، وقيل : إنه اسم ذلك الملك بعينه ، وهو صاحب موسى عليه السلام ، والإطلاق الأول هو الأظهر لأنه يتفق وما جرى عليه العرف بين المؤرخين قديماً وحديثاً من تسمية العصر التاريخي الذي يبتدئ بظهور مينا وينتهي بانتهاء الأسرة الحادية والثلاثين بعصر الفراعنة**".

ثم عاد الأستاذ الكاتب فذكر أن :

"**مينا كان هو أول الفراعنة الذين جلسوا على عرشها ، ثم تتابعت الأسرات والملوك إلى أن انقرضت دولة الفراعنة سنة ٣٤٠ ق.م**".

فالأستاذ الكاتب يطلق لقب فرعون على حكام مصر القديمة قاطبة من أولهم حتى آخرهم.

ونقول :

فرعون أو برعا تركيب مصري قديم لا يدل في نفسه على حاكم مصر، إذ ليس في الكلمة معنى الحكم أو السلطة أو السيادة ، فالتركيب لا يعني أكثر من : البيت الكبير أوالبيت العظيم .

ويذكر السير الآن جاردنر Alan gardiner في كتابه الحُجة في الهيروغليفية : فقه اللغة المصرية Egyptian Grammar أن تركيب : برعا/ فرعون أو البيت الكبير Great House :

"كان يُطلق على قصر الحاكم المصري أو مقر حكمه دون أن يطلق على شخص الملك نفسه ، وقد تطلق برعا/ فرعون أو البيت الكبير على ما يتصل بقصر الملك من أغراض أو على بلاطه وحاشيته"(١).

فكما كان يقال في العهد الملكي في مصر مثلاً : سياسية القصر وحزب القصر، كان يطلق على قصر حاكم مصر القديمة أو مقر حكمه : برعا/ فرعون دون أن يتعدى اللفظ الدلالة على قصر الحاكم إلى الدلالة عليه هو نفسه.

ولم يتعد لفظ برعا/ فرعون الدلالة على قصر الحاكم إلى الدلالة على شخصه إلا في أواخر الأسرة الثامنة عشرة ، وأقدم وثيقة يتعدى فيها اللفظ الدلالة على قصر الحكم إلى الدلالة على شخص الملك هي رسالة موجهة إلى امنحتب الرابع المشهور باسم أخن أتن أو أخناتون (١٣٥٣ق.م– ١٣٣٥ق.م) ، وهى رسالة تبدأ بعبارة :

"سيدي الفرعون أو صاحب السيادة الفرعون Pharaoh,The Master"(٢).

ولم تثبت دلالة لفظ برعا/ فرعون على شخص الملك ، بحيث يستعاض بالكلمة عن ذكر الملك وعن ذكر ألقاب التوقير والتعظيم ، إلا في عهد الأسرة التاسعة عشرة ، والتي بدأ حكمها سنة ١٣٠٧ق.م برمسيس الأول.

ففى عهد هذه الأسرة حل برعا/ فرعون محل ألقاب التعظيم والتفخيم ، فلم يعد يقال ولم يعد يكتب في المكاتبات : أمر جلالة الملك أو انتصر في حربه فخامة الحاكم ، بل أصبح يقال ويكتب : أمر فرعون وانتصر فرعون ، فأصبح بذلك لفظ فرعون كنية أو لقباً للحاكم ينوب عن اسمه وعن لفظ الملك وما يساويها من ألفاظ في الدلالة على شخصه.

على أنه بعد الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٧ ق.م– ١١٩٦ق.م) ، والتي انتهى عصرها بالملكة تاوسرت ، قل مع الزمن استخدام فرعون في الدلالة على شخص

---

1) Sir Alan Gardiner, Egyptian grammar,Being an introduction to the study of hieroglyphs, P75, Geoffray Cumberlege, Oxford University Press,second edition, London, 1950.

2)Alan Gardiner,Ibid,P75.

الحاكم ، خاصة وقد تعاقب على حكم مصر سلسلة من الأسرات غير مصرية الأصل.

ففرعون هو لقب حكام مصر وكنيته خلال فترة حكم الأسرة التاسعة عشرة فقط لا يتعداها ليطلق على حكام مصر قبلها ولا بعدها ، وإطلاق لقب فرعون على حكام مصر القديمة قاطبة هو بالضبط كمن يكتب تاريخ مصر الحديثة فيطلق لفظ خديو على حاكمها كلما جاء ذكره ، فعلي بك الكبير عنده خديو، واسماعيل خديو، وفاروق خديو ، وعبد الناصر خديو.

والخديو لقب اشتراه اسماعيل من السلطان العثماني فلا يصح إطلاقه على أحد قبله ، ولا يجوز إطلاقه على حاكم مصر بعد عباس الثاني ، إذ انفصلت مصر عن دولة الخلافة وصار الحاكم يسمى سلطاناً ثم أصبح ملكاً ثم صار رئيساً.

إذاً فرعون كنية خاصة بحاكم مصر في عهد مخصوص محدد من عصورها.

لا فرعون إلا فرعون موسى عليه السلام :

ذكر الأستاذ الكاتب أنه سيتحدث عن فراعنة الأنبياء ، ثم أطلق لقب فرعون على حاكم مصر في الوقت الذي وفد إليها فيه خليل الله إبراهيم عليه السلام ، وعلى حاكمها في عهد دخول يوسف عليه السلام مصر وقصته فيها ، وعلى حاكمها الذي ولد في عهده موسى عليه السلام وجرت قصته معه.

وحاكم مصر في عهد إبراهيم عليه السلام ، كما ذكر الكاتب نفسه ، كان من الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ق.م- ١٧٨٣ ق. م) ، وأما يوسف عيه السلام فقد دخل مصر في عهد الأسرة السادسة عشرة (١٥٨٥ق.م- ١٥٣٢ ق.م) .

ومن ثَم فأي منهما لم يكن يطلق عليه بحال لقب فرعون التي لا تعني مجرد الحاكم ، وإنما هي كنية اختص بها حاكم مصر من الأسرة التاسعة عشرة.

هذا فضلاً عن أن حكام مصر في العهد الذي دخل فيه يوسف عليه السلام وعاش ومات لم يكن مصرياً أصلاً ليطلق عليه بلغة مصر لقب حكام مصر، فقد كان من قبائل الشاسو أو الرعاة ، أو كما اشتهروا وذكرهم الكاتب : الهكسوس.

والأستاذ الكاتب لم يذكر لنا في مقالته أو بحثه الصغير مصادره التي نقل عنها ، بيد أنه يستوي ذكر الأستاذ الكاتب لمصادره وعدم ذكرها ، لأن ما أورده في بحثه نقلاً عن هذه المصادر هو غرف مغروف من التوراة.

يدلنا على ذلك أن الأستاذ الكاتب في قصة فرعون موسى تابع المؤرخين الغربيين ومن لف لفهم من المصريين في أن فرعون موسى فرعونان :

"**فرعون الاضطهاد لأنه اضطهد بني إسرائيل وقسا في معاملتهم ، ويقال للثاني : فرعون الخروج لأن بني إسرائيل خرجوا من مصر في عهده** "

فخالف الأستاذ الكاتب بذلك القرآن الذي لا يذكر إلا فرعون واحداً ، وُلد موسى وربى في عهده واضطهد هو بني إسرائيل ، ثم خرج موسى إلى مدين وعاد إليه ليقول له :

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ (الشعراء: ١٨).

والمصريون ، إن كان الكاتب نقل عن مصريين ، لم يكتشفوا ولم يجمعوا شواهد وآثاراً ، ولم يفحصوا أحافير وأطماراً ، ولم يفكوا شفرات ولا حلوا ألغازاً ، ومن فعل ذلك منهم فإنما كان يفعله في كنف الغربيين وتحت أعينهم وفي ظل مناهجهم والإطار العام الذي يضعونه.

والغربيون اكتشفوا وجمعوا الشواهد والآثار وفحصوا الأحافير والأطمار وفكوا الشفرات وحلوا الألغاز لينطقوها بما في التوراة ، إذ منظارها على أعينهم وأذهانهم منقوعة فيها.

والتوراة فيها فرعونان لموسى لا فرعون واحداً ، أحدهما ولد موسى وربى في عهده ، فلما خرج إلى مدين :

" **حدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات**"(١)

(١) خروج :٢ : ٣٢ .

ثم جاء بعده فرعون آخر ، هو الذي أرسل الرب موسى إليه ليطلق شعب إسرائيل.

فالأستاذ الكاتب ، علم أو لم يعلم ، تابع غربيين أو مصريين يسيرون في ذيول غربيين ، والجميع يغرفون من التوراة.

وكما نقل الأستاذ الكاتب عن مصريين عن غربيين عن التوراة أن فرعون موسى فرعونان ، نقل عنهم وعنها إطلاق لقب فرعون على حاكم مصر القديمة أنى جاء ذكره ، مخالفاً القرآن الكريم الذي قصر اللقب على حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام ولم يطلقه على أحد غيره ليكون ذلك دليلاً على صدقه ، وليكون شاهداً على تلفيق التوراة.

فرعون بين التوراة والقرآن :

أطلق مؤلفو أسفار التوراة التي عرفها العالم لقب فرعون على حاكم مصر في كل موضع يرد ذكره فيه ، فلأن الحضارة المصرية القديمة كانت قد اندثرت ولغتها قد بادت في الزمن الذي ألف فيه كتبة التوراة أسفارها ، لم يدر بخلد هؤلاء الكتبة ، وقد توارثت أسماعهم قصة فرعون مع موسى عليه السلام ، إلا أن فرعون هذه التي لا يعرفون معناها هي اسم حاكم مصر مطلقاً.

ولأن من يكتب أعجبته الكلمة ولم يكن يدري أن الزمان سيدور دورة واسعة ليخرج آثار مصر ولغتها من بطن الأرض إلى ظهرها ، فقد أطلق الكتبة فرعون ، وتكتب بالعبرية هكذا: פרעה ، ويقابل هجاءها في العربية : برعو، وتنطق : فرعو بقلب الباء الشفوية الثقيلة فاءًا كما في العربية ، وبنطقها العبري هذا انتقلت الكلمة من التوراة إلى الألسنة الغربية لتصبح : Pharaoh، أطلق الكتبة فرعون على كل حكام مصر ممن لهم ذكر في السيرة الذاتية لبني إسرائيل ، وذلك في مأمن من النقد في زمن يجهل فيه الناس ويجهل الكتبة أنفسهم معنى الكلمة.

فحكام مصر في عهد إبراهيم عليه السلام عند كتبة التوراة فرعون :

"ورآها (سارة) رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون... فأخذت المرأة إلى بيت فرعون"[١] ، "...فدعا فرعون أبرام"[٢]

وحاكم مصر في عهد يوسف عليه السلام فرعون :

"فسأل خصي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده"[٣] ، "...... حينما يصير لك خير تصنع إلي إحساناً وتذكرني لفرعون"[٤].

وحاكم مصر في عهد سليمان عليه السلام فرعون :

" صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار... وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان"[٥].

وقد كفى كاتب سفر الملوك الأول متابعيه عناء البحث عمن يكون حاكم مصر هذا الذى يسميه فرعون ؛ إذ بعد أن أخفاه في عهد سليمان عاد فجلاه في عهد ابنه رحبعام:

"وفى السنة الخامسة من ملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشاليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك"[٦].

فرادف كاتب السفر في وصف شيشق بين لفظ فرعون ولفظ الملك ، وهو ما لا يكون؛ إذ من يسميه كاتب السفر شيشق هو شيشنق Shishonk.

وهو واحد من أربعة شُشانقة حكموا مصر إبان عهد الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ق.م– ٧٤٥ ق.م).

والمذكور في العهد القديم هو شيشنق الأول مؤسس الأسرة وأول ملوكها (٩٤٥ق.م– ٩٢٤ق.م) ، وهو والأسرة كلها غير مصرية الأصل ، إذ هي أسرة لوبية

(١) تكوين: ١٢ –١٥ .

(٢) تكوين : ١٢ : ١٨ .

(٣) تكوين٤ : ٧ .

(٤) تكوين ٤ : ١٤.

(٥) الملوك الأول : ٩ : ١٦

(٦) الملوك الأول : ١٤ :٢٥

(ليبية) تكونت من ضباط وقواد قبائل التحنو الذين تغلغلوا في الجيش المصري وسيطروا على مقاليد البلاد في عهد الأسرة السابقة إلى أن تمكن أحدهم وهو شيشنق الأول من الوثوب إلى الحكم وتأسيس الأسرة.

وحاكم مصر في عهد حزقيا ملك يهوذا عند كتبة التوراة فرعون:

"**وأرسل ملك أشور... وربشاقي من لخيش إلى الملك حزقيا بجيش عظيم ... فقال لهم ربشاقي: قولوا لحزقيا. هكذا يقول الملك العظيم ملك أشور... والآن على من اتكلت حتى عصيت علي... على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها . هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه**"[(١)] ، "**.... فرجع ربشاقي ... وسمع من ترهاقه ملك كوش قولاً...**" [(٢)]

وترهاقه الذي يسميه المؤلفون فرعون هو طهرقه ثالث ملوك الأسرة الخامسة والعشرين وآخرهم (٦٨٨ ق.م– ٦٦٣ ق.م).

والأسرة الخامسة والعشرون (٧١٢ ق.م– ٦٦٣ ق.م) أسرة كوشية (نوبية – إثيوبية) ، وطهرقه الذي فرعنه كتبة الأسفار كان زنجياً.

ثم أشرقت شمس القرآن ليصحح ما حُرف ، ويأتي بما غُيب ، ويخرج ما نُسي ، ويقيد في دقة معجزة ما أُطلق .

قيد القرآن الكريم لقب فرعون بحاكم مصر في عهد موسى عليه السلام فلم يطلقه على أحد غيره ، وحاكم مصر في عهد موسى عليه السلام من الأسرة التاسعة عشرة التي يلقب عاهلوها بلقب الفرعون بقرينة في الأسفار ، هي مما تبقى فيها من الحق ، إذ في سفر الخروج[(٣)] أن بني إسرائيل خرجوا من مصر بعد أن تسخرهم فرعون في بناء مدينة بيثوم Pithum ، وتنطق في العربية والعبرية : فيثوم بقلب

---

(١) الملوك الثاني : ١٨ :١٧ – ٢٢.

(٢) الملوك الثانى : ١٩ : ٩ .

(٣) خروج :١ : ١١

بائها الشفوية الثقيلة فاءًا ، ومدينة بر رعمسي ، والمقطع الأول في اسمها : بر هو نفسه المقطع الأول من : برعا ، فهي مدينة : بيت رمسيس.

وقد عثر المستكشفون الغربيون على بقايا المدينتين في القرن التاسع عشر ونسبوهما للأسرة التاسعة عشرة ولرمسيس الثاني تحديداً.

ففي حين أطلق كتبة الأسفار لقب فرعون على حكام مصر عشوائياً أينما صادفوهم ، قصره القرآن في دقة بالغة على حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤١ – ٤٢).